

الأصل وغيره

بقلم ابراهيم عبد القادر المازني

أراني أحد الإخوان رواية لكاتب إنجليزي معاصر اسمها « مذنبون بكرهم » وقال أقرأها . وقد اقتنيت نسخة منها ، ولكنني ما زلت محجبا عن قراءتها وإن كان قد مضى يومان وهي على مكتبي تخاليني كلما جلست إليه . وأحسب أن في اسمها ما يصدني عنها . ولست أعني أني أكره القصص التي تتناول الخطيئات والدنوب والآثام ، فقلما تخلو رواية من شيء من ذلك ، بل يتندر أن تخلو حياة من هذا ، فإن العصمة « عليا مراتب الأنبياء » وإنما أكره ما يبدو لي من التناق أو المغالطة أو الجهل أو اللداجة في هذا الاسم . ولو قال إنهم أخيار أو أطهار أو طيبون بكرهم لكان أشبه بالحق . فإن رأي أن الإنسان مطبوع على ما نسميه الشر ، وليس بمفطور على ما ألفنا أن نسميه الخير وما إلى هذين من صفات قبيحة وطيبة . والذي نمدّه خيراً ليس أكثر من عادة أو ضرورة ، ولكن الذي نقول إنه الشر أصل . وقد صدق النواصي في قوله :

أنت يا ابن الزبيح أژمتي النسك وعودتني ، والخير عاده
وقد سألت نفسي غير مرة لو كنت ، ومي ابني — والأبناء
فيما يعرف الناس ويمسسون أفلاذاً كبادم — في صحراء جرداء لا ماء
فيها ولا شجر ، ولم يبق معنا من الزاد إلا كسرة ، ومن الماء إلا
قطرة ، وجرح بنا الجوع والظلم ، فإذا كنت عسى أن أصنع ؟؟
أؤثره على نفسي ، أم أؤثر نفسي عليه ؟

وآثرت الاخلاص وصدق السريرة في الجواب فقلت إن
أول ما كان خليقاً أن يدور بنفسى هو أن أؤثر نفسي على ابني ،
ولملى حقيق إذا تقلت وطأة الاحتمال على أن أقاتله على اللقمة
أو قطرة الماء . ومهما يكن من ذلك فإن المحقق عندي — فيما أشعر
وأعلم — هو أن الخاطر الأول يكون هكذا ، أى أن تحدثني نفسي
بالاستئثار دون ابني بما بقي لنا . وقد يتقلب العقل وعادة الكبح
والنظام الذي تجري عليه في حياتنا المتحضرة . فيحدث أحد
أمرين مثلاً : أن يكون الباقي مما يحتل القسمة ، فاقترح اقتسامه

ومن يدري؟ لملى وأنا أكرس اللقمة الباقية أجور عليه في القسمة؛
وإذا كان الأمر لا سبيل فيه إلى مشاركة ، فقد أقولى لنفسى إن
من قلة العقل أن أخطب الكسرة والماء فأطيل بذلك عمرى
ساعات ، وما يبدو لنا أمل في نجدة قريبة ، وأنا قد عشت أكثر
ساعات ، وسيقضى كلانا نجبه فليس بضائرى أن يبقى بعدي
ساعات ؛ وهب ناساً أدركونا وأنقذونا فإن الباقي من عمرى دون
الذى مضى وانقضى ، وهو على كل حال شيخوخة وتهدم ،
وأمرراض وعلل ، وأوصاب وعجز ، فما حرصى على ذاك ؟ ولكن
هذا صنير ولا يزال أمامه شباب طويل وريف ، فهو أولى بالحرص
على الحياة والتعلق بها وأحق بذلك منى ، وقد أكره أن يرى
أترقى وقبحها وشناعتها ، وأخاف أن يعرف ذلك عنى بوسيلة ما ،
فأناوله الماء وأجود عليه بالخبرة الناشفة ، وأنظاه بالرحمة ،
وأتكلف الايثار وأقول له : إنك ابني وفلذة كبدى ، فبقاؤك
استمرار لحياى وامتداد

وفي الدنيا عشاق عجائز غير قليلين وقد يهيم الواحد منهم
بالانتحار إذا ضنت عليه حبيبته بإبتسامة أو أمرضت عنه في مجلس ،
أو أبت عليه قبلة وضمة . خذ هذا الماشق الرهشان ، المله ،
المزدهف اللب ، الشموف القلب ، وأجلسه إلى جانب حبيبته
المعبودة في البرد القارس والمطر النهمر ، وانظر ماذا يحدث ؟ أتظن
أنهما يتتاجيان في تلك الساعة بمحبهما ؟؟ أترأه يشتهى حينئذ أن
يقبلها أو يضمها ، أو يبالي بإبتسامها أو إعراضها ، أو يحفل
ما يكون من ذلك منها ؟ بل سل نفسك أيخطر له الحب وهو
ينتفض من البرد والمطر ويرعد ؟؟ وقد يندفع بحكم العادة فيخلع
سترته ويضمها على كتفى المحبوبة المعبودة ، ولكنه لا يفعل ذلك
إلا وهو كاره له ، وساخط عليه ، ونائم على الضرورة التي تدفعه
إلى ذلك . ويزداد البرد مع طول الجلسة ، ويمانيان منه مالا طاقة
لهما به ، فلا يبقى لهما م إلا في هذا وفيما يمكن أن يصنعا لائقاء
عواقبه ، أو النجاة منه ، وينذهب الحب وتذهب دواى الانتحار ،
وتهبط قيمة ذلك كله إلى الصفر . فليت الماشق الذين يسلب الحب
عقولهم ، يكابدون شيئاً من هذه المكاره ليعلموا أن في الوسع أن
يقبل احتفال المرء بإبتسامة حبيبته ، وتفتر الرغبة في ضمها وتقبيلها ،
بل إن في الوسع أن يحيا بنير هذه الحبيبة ، ولا يفكر فيها ،

عهد الى الموضوع

الدين والأخلاق

بين القديم والجديد

لأحد أساطين الأدب الحديث

— ٢ —

لو أن الأستاذ النمراوى قصر حديث الدين والأخلاق على الرافى لكانت حجته أقوى ، ولكنه وقع فى خطأ منطقي إذ حسب أن جميع أدباء المذهب القديم قد راعوا حرمة العرف والتقاليد وآداب الدين وأخلاقه كما راعاها الرافى . فكأن حجته مقسمة حسب التقسيم الذي يُستشهد به فى الخطأ المنطقي : هي أن الرافى راعى حرمة أخلاق الدين ، والرافى من أدباء المذهب القديم ، فنستنتج من ذلك أن للمذهب القديم راعى حرمة أخلاق الدين . وهذا الاستنتاج كاستنتاج من يقول : الفيل له خرطوم ، والفيل حيوان ، فكل حيوان إذا له خرطوم . وقد ظهر هذا البرهان المنطقي فى أكثر من مكان فى مقالات الأستاذ النمراوى ولا سيما فى المقال الأخير . انظر إلى قوله (فالسألة فى الأدب إذا ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها فى صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحثاً بمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما اتى فى ذلك من لغة وألم أو غيرها من ألوان الشعور ؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة .. إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه الأدب الجديد ... وأدب الفريق الثانى هو ما يسمونه بالأدب القديم ...)

ومن الغريب أن عدد الرسالة الذى كتب فيه الأستاذ النمراوى هذه الجلة فيه مقال للأستاذ خلاف بشير إلى كتاب يتيمه الدهر الشمالى وإلى غيرها من كتب الأدب القديم ، ونستشهد منه بالجلة الآتية : (ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة فى المرأة ، ونظم الغزوق وجبر الشاتم والسباب ، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما فى مائى الشذوذ والضمف الخلقى ، وامتلأ العصر العباسى لثانى بالتفنن فى تسجيل الصور الدنيئة من حياة

ودع عنك الانتحار من أجل قبلة أبتها عليه !

وهذه الشجاعة ماذا هي ؟ إن الأصل فى الانسان الجبن لا الشجاعة ، لأن غريزة المحافظة على الذات تقضى بذلك ، ولكنه يتشجع ، ويحتمل التمرض للمكاره أو المماط ، ويلقى بنفسه فى الهلكة ، مرغماً ، فقد يكون الذى يفر منه شراً مما يرى نفسه عليه ، أو يكون فى الجبن الهلاك فيستوى الأمران ، وإذن تكون الشجاعة أولى ، وأجلب لحسن السمعة وطيب الأحذوة ، ففيها حتى مع الهلاك عزاء أدبى . أو يكون الموقف من شأنه أن يورط المرء فلا يبق مفر من الاقدام ، والأمر منه . وقد يكون المرء ضئيف الخيال ، أو قليل الادراك فهو لا يحسن أن يقدر الأمور ، ولا يبالغ فى توم الاخطار وتجسيدها ؛ أو يكون على تقيض ذلك كبير العقل واسع الخيال ، فلا يرى بأساً من الجرأة لأن فرص النجاح أو السلامة كفرص الاخفاق والتلف ، أو أكثر ، إلى آخر ما يمكن أن يكون باعثاً للانسان على مقاومة الحرص الطبيعى على الحياة والضمف الفطرى بها

ولا أعرف ما شأن غيرى ، ولكنى أعرف نفسى على قدر ما يتيسر لى ذلك ، وأعلم أنى أشتغى كل ما يشتغى فى الحياة ، وإذا كنت لا أواقع كل لغة أشتغىها ، أو أطلبها ، أو أحلم بها ، فما هذا منى عن عفة فطرية ، وزهد فى طباعى ، فان لكل حالة من حالات الحرمان علة لا تخفى على ، ولا أستطيع أن أغالط نفسى فيها ، وإن كنت أغالط الناس ، ولو سألتى ربي — كما سيألتى بعد عمر طويل — لأقررت بذنوب لم أقارفها ، وخطايا لم أرتكبها ، وشهوات تبحث نفسى عنها ، أو استمعى على إدراكها ، ولطال بي الاعتراف ، والخلائق ورائى تنتظر دورها تحت الشمس المحرقة فى تلك الساعة التى تذهل الأم عن ولدها ، فاشفق عليهم ، وأوجز وأقول إن ربي أدري بي وأعرف بالظاهر والباطن ، فلا حاجة إلى الافاضة فى الاعتراف . وإنى ، على الجلة ، ومع تفاوت واختلاف قليلين لكما قال السميع رحمه الله :

فترانى طول عمرى تائباً من غير عفة

فلا نجاة لنا إلا برحمة من الله ومغفرة .

برهيم عبد القادر المازنى